

لبنان في عهد الفرنجة: الإجماع والعودة

الكتاب: لبنان في القرون الوسطى- الجزء الثاني
عهد الفرنج- الصليبيين (492-690هـ/1099-1291)
المؤلف: أ.د. الياس القطار
راجعته: أ.د. عبد الرؤوف سنوّ

أثارت الحروب الصليبية إهتمام المؤرخين وفضول عامة الناس، بسبب ضخامة هذا الحدث الذي حرّك غرائز مئات الآلاف من أهل الشرق والغرب، من جهة بسبب محرّك إيماني مسيحي، ومن جهة أخرى بسبب ردّ جهادي إسلامي عليه، مما أثار عشرات الأسئلة التي لقيت مئات الأجوبة على هذا الحدث الغريب والاستثنائي.

ومن الكتب الصادرة حديثاً عن هذا الحدث "لبنان في القرون الوسطى- عهد الفرنج- الصليبيين"، لمؤلفه الأستاذ الدكتور الياس القطار، الذي يحصر الدراسة بلبنان الحالي فقط على صعيد الأوضاع السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والعمرائية والفنية، في زمن حروب الفرنجة، التي تُعرف باسم "الحروب الصليبية". ويسخر القطار لذلك، بكلّ براعة، معرفته وخبرته المنهجية في معالجة موضوع حسّاس بطريقة علمية، موضوعية، منفتحة، متجردة، متقصية لأبسط التفاصيل، ولأدقّ التحاليل.

يحاول الدكتور الياس القطار، أستاذ التاريخ الوسيط والمنهجية التاريخية في الجامعة اللبنانية، التطرّق إلى حروب الفرنجة على أرض لبنان من خلال تقصي أسبابها، ووقائعها، ونتائجها وكامل تفاصيلها السياسية والحضارية، ويكتفي بإيراد ما جرى خارج لبنان بطريقة مختصرة جداً، حتى يضع الجزء في الكلّ فقط.

ولتحقيق هذا الكتاب، قَمَّش الدكتور القطار غالبية المصادر العائدة للحروب الصليبية، خاصة المصادر الغربية منها، وهي على نوعين: تلك المدوّنة باللغة الفرنسية القديمة، من القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وقد استقرأ غالبيتها، برغم صعوبة فهمها، مستفيداً كثيراً منها بطريقة أغنت البحث. أمّا بالنسبة للنوع الثاني من نصوص الحروب الصليبية، فهي باللغة اللاتينية، ما جعله يعتمد على الترجمات لها بالفرنسية والانكليزية. وبلغ ما اطلع عليه من مصادر ومراجع وبعضها من عشرات الأجزاء (141 مصدراً ومرجعاً باللغات الأجنبية و112 مصدراً ومرجعاً باللغة العربية).

بدأت حروب الفرنجة- الصليبيين في أواخر القرن الحادي عشر، عندما قرّروا انتزاع الأراضي المقدّسة من أيدي المسلمين، في وقت كانت بلاد الشام فيه مسرحاً للانقسام والتجزئة لكثرة الملل والنحل الإسلامية والمسيحية المتناحرة.

كانت الدوافع الاقتصادية للحروب عند الطبقة الحاكمة في أوروبا توازي الدوافع الدينية عند العامة. فمشاركة الدويلات الايطالية، مثلاً، كان وراءها الرغبة في البحث عن أسواق جديدة من

ضمن المنافسة فيما بينها. كما كان لهذه الحملات الصليبية بواعث أخرى، منها: الصفات الحربيّة، والميول القوميّة إلى الهجرة، ومنها هدم كنيسة القيامة بأمر الحاكم بأمر الله سنة 1009م، وانتصار السلاجقة على البيزنطيين في معركة منزكرت (ملازكرت) في سنة 1071م. كما كانت هذه الحروب في الوقت نفسه متنقّساً للفلاحين الذين كانوا من دون أرض يعملون على إحيائها، بسبب ضعف المساحات القابلة للزراعة في أوروبا، مع اتساع المساحات المكرّسة من قبل الأسياد للرعي وللصيد.

ونتيجة لما ذكر أعلاه، جال البابا "أوربانوس الثاني" Urbain II (1088-1099م) في أنحاء أوروبا للحصول على تأييد أعيانها لشن الحرب على المشرق الإسلامي، وذلك قبل انعقاد المجمع في 26 تشرين الثاني سنة 1095م في مدينة "كليرمونت"، حيث ألقى خطبة مطوّلة ومشهورة استحثّ فيها المؤمنين على سلوك الطريق المؤدّية إلى كنيسة القيامة لانتزاعها من المسلمين.

استجاب لدعوة البابا إلى حمل السلاح بداية نحو مئة وخمسين ألف رجل، من صغاليك الناس في حملات شعبيّة. ثم تلت ذلك الحملات العسكرية المنظّمة من كافة الأوربيين طيلة قرنين من الزمن. وحملت القوات الأوروبية التي اجتاحت المشرق تسمية الفرنج في المصادر العربية والغربية، وما تسمية الصليبيين إلا تسمية متأخّرة، بسبب وضع هؤلاء شارة الصليب على صدورهم.

تُقسم هذه الحروب، بالنسبة إلى لبنان، على الصعيد السياسي- العسكري إلى مراحل، أولها: مرحلة الظفر وفتح المدن اللبنانية، وتمتد من سنة 1097م إلى سنة 1124م وهو تاريخ سقوط مدينة صور؛ ثم مرحلة ردّة الفعل الإسلامية ومحاولات الاسترداد التي تصدّرها آل زنكي، وتجتاز ذلك إلى مرحلة التوازن التي أملتتها انتصارات صلاح الدين الباهرة في معركة حطين، ثم مرحلة تفكك سلطنة صلاح الدين وإمارات الفرنجة وما رافقها من الحروب الأهلية والمعارك الصغيرة التي برز فيها رجال الدولة الأيوبية، ثم أخيراً مرحلة حسم وجود الفرنجة وإنهائه مع سلاطين المماليك سنة 1291م ومعها فقد الصليبيون آخر موطنٍ قدم لهم في برّ الشام. وقد استفاد الكاتب بشكل جيد من المصادر الغربية التي لم تستخدم في التأريخ للبنان، بل للمنطقة بشكل عام للبحث في هذه المواضيع، كما كانت هذه المصادر عماد القسم الثاني من كتابه عن الإدارة والمجتمع والاقتصاد والعمران والفنّ، بحيث قدّم كشفًا جديدًا على مستوى أكاديمي لائق يضاهي أرقى الأبحاث الأكاديمية.

خرج الفرنجة من الشرق منكسرين عسكرياً ومنتصرين حضارياً، وصمد المسلمون فيه منتصرين عسكرياً ولكن للأسف، دخلوا تدريجاً في دورة متلاحقة من الانكسار الحضاري. فهناك كانت طلائع النهضة، وهنا تباشير الانحطاط.

كان الناس في ما يعرف اليوم بلبنان، وحتى ببعض أجزاء ما يعرف بسورية، يتأقلمون مع الواقع الذي انتقلوا إليه، غربيين كانوا أو شرقيين. فلقد مارس الفرنجة إداراتهم على السكان المحليين من مسلمين ومسيحيين، وأوجدوا الأنظمة البلدية التي ترعى شؤون السكان وتضبط إيقاعها. فدخل هؤلاء في النظام والتراتبية، وتعايشوا طيلة قرنين من الزمن مع الواقع الجديد، على الرغم من الدعوات للجهاد وممارسته من قبل القوى الإسلامية القائمة خارج رقعة انتشار الفرنجة.

ومن النتائج المهمة للحروب الصليبية، أنها أدت إلى إعادة فتح ضفتي المتوسط على بعضها البعض، بعد قرون من القطيعة في البدء، بعد الفتح الإسلامي، أو بسبب الجمود وضعف الحركة لاحقاً. فدبّت الحياة في شواطئ المتوسط الشرقية، وأثمر ذلك نهضة تجارية عمرانية فنيّة في مدن لبنان الساحلية، وبعض قرأه لا تزال أثارها المعمارية تشهد على غناها.

لقد نجح الدكتور الياس القطار في مغامرته العلمية في غياهب الحروب الصليبية، فقدّم صورة غنيّة عن واقع لبنان في ذلك الزمان، كشفت كلّ الأوضاع السياسية وخاصة الحضارية، في منهجية دقيقة صارمة ولغة سهلة واضحة. فهو يستحق كل تقدير وتشجيع.

لبنان في القرون الوسطى

الجزء الثاني



عهد الفرنج - الصليبيين
(٤٩٢-٦٩٠هـ / ١٠٩٩-١٢٩١م)

الياسر القطار

أ.د. في التاريخ الوسيط
كلية الآداب - الجامعة اللبنانية
بيروت ٢٠٠٨